

فجاء الجنود وطوفوها تطويقاً . وكان العمال والمستخدمون يتوافدون عليها مئات مئات من كل صوب وهم يصيحون « الاشتراك او الموت » . فلما قربوا منها وشاهدوا الجنود حولها ازدادوا حدة وهياجاً وصاروا يصيحون « ايها الجنود نحن وانتم اخوان لاننا جميعاً من ابناء الشعب . فلا تسيئوا الينا » وكانت الجنود تسمعهم وتحول نظرها عنهم اتباعاً لنظامها . ولما حاول بعض العمال الدخول الى المعامل والمخازن حال الجنود بينهم وبين الدخول . فحدثت فتنة بين الفريقين . واتفق في هذا الحين ان اطلق واحد من العمال طلقاً من مسدس كان معه فاصاب كتف احد الجنود . فعم الاضطراب في تلك الناحية . وصدر الامر الى الجنود بان تجرد السلاح وتهجم لتفرق العمال من غير سفك دم . فهجمت الجنود طاعة لروؤسائها هجمة واحدة . غير ان صفّاً واحداً منها كان مؤلفاً من ٥ جندياً القى سلاحه وانضم الى العملة . فصرخ العملة حينئذ صراخ الابتهاج والفرح . اما رؤساء الجنود فعلا وجوههم الاصفرار من هذا التمرد وخافوا ان يخذلوا باقي الجنود خذوهم لئلا يمتدوا فيصير الامر للعمال وبقضى على الساطة القديمة

لكن النظام العسكري كان متأصلاً في نفوس اولئك الجنود بتربية عدة سنين . ولذلك كان اكثرهم يسبرون كالعميان الى حيث يقودهم رؤسائهم ولو كان ذلك ضد مصلحتهم . فتمكن الجنود في ذلك النهار من تفريق العمال واعادة النظام . ومع ذلك لم يرض الشيخ الرئيس حاكم المدن الثلاث ان يعقد جلسة في تلك الليلة في الحديقة لان الافكار كانت شديدة الحماسة

الفصل العاشر

✽ تحالف الارض والساء ✽

على تاركي مبداء الفرق والاخاء

ولما اقبل المساء ساد على المدينة سكون تام . فتنفس الحكام واصحاب الاعمال الصعداء واطمأنّت نفوسهم قليلاً . وعاد لمدينة المال شيء من منظرها الاعتيادي بعد ذلك الاضطراب . فكان الناس في القهاوي والساحات العمومية جالسين يستشقون نسيم المساء وهم يتباحثون بهدوء في حوادث النهار

ثم انتصف الليل فاطفأت الانوار في المدينة ونام جميع السكان . وساد سكوت تام حتى لم يعد يُسمع فيها سوى خرير النهر الجاري يسقي المدن الثلاث وصوت الخفاش في طيرانه في الظلام ووقع اقدام الجنود والحراس الذين كانوا يحرسون المدينة في الليل . وكان هؤلاء الحراس يسمعون حيناً بعد حين في ظلمة الليل صوت طائر بعيد يقول بعضهم لرفاقه : ان عظامي تنتفض كما سمعت هذا الصوت في الليل في احوال كهذه الاحوال

ذلك ان ذلك الصوت كان صوت البوم المشهور بأنه نذير الخراب و بقيت المدينة نائمة بهدوء واطمئنان تحت جناح الدجى حتى الساعة الثالثة قبل الفجر . وفي هذه الساعة انتشرت في انحاء المدينة انوار مختلفة في جوانبها الاربعة . ثم علا الصياح والصراخ . ثم ارتفع الدخان فسد منافس الفضاء . وحينئذ حدث حادث ترتعد له الترائص وترتجف القلوب . فان المدينة كلها هبت من الرقادة مجنون . وصار الرجال يصرخون والنساء يولولن والاولاد يبكون وينتحبون . ذلك ان لسان النار لعبت في اكثر منازل المدينة خصوصاً في معاملها ومتاجرها ومنازل اصحاب الاعمال فيها . وهجم عليها جماعات كانهم اباسة خرجوا من الجحيم فصاروا ينهبون ويسلبون . وكان حلم ورفيقه نائمين في فندق من اشهر فنادق المدينة . فلما اتبها وشاهدوا النار تاكله اخذا الستائر والسجادات فعملا منها سلباً وتدلياً عليها الى الارض . ولما باتا في الشوارع ابصرا فيها ما تنتظر له القلوب . ابصرا الانسان بجائته الحيوانية الحقيقية . فان جماعات السلاطين النهابين كانوا يهجمون كوحوش ضارية ويكسرون المخازن والحوانيت ويحملون ما فيها . وكانوا يصعدون الى القصور الكبيرة والنار تضطرم فيها وبدل ان ينقذوا النساء والاولاد الذين كانوا يختنقون فيها من الدخان او يحترقون بلهب النار كانوا يقتلون وينهبون كل ما وصلت اليه ايديهم . اما الجند والمطافيء فماذا تقدر ان تصنع في ثورة عمومية كهذه الثورة . فانه لم يكن في المدينة سوى ١٠ مطافيء ومع ذلك فقد كانت النار مضطربة في ٥٠٠ منزل . وعن قريب ستصل الى باقي المنازل فتاكلها كلها

وقد ظن حليم لاول وهلة ان هذا المصايب قد حل بمدينة المال وحدها ولكنه لم يلبث ان سمع الصراخ من جهتي مدينة العلم والدين ورأى اللهب يرتفع من جوانبها . فقال لرفيقه : هذه مؤامرة دبرها الغلاة المتطرفون ولا شك انها نتيجة الاعلان الذي نشر امس . فسأله رفيقه وما رأيك فيها . فاجاب حليم لو كنت املاك الآن مسدساً ومائة خرطوشة لكنت اظهر لك رأيي فيها . فاني كنت اذهب واحرق ادمغة كل من اراه في طريقي

من هؤلاء الالباسة الذين يقتلون وينهبون . ولا شك عندي ان عقلاء العمال والاشترائيين انفسهم ياتفون من انزال مبادئهم الى هذه الحماة من الاصوصية والسفالة . فقال له رفيقه : ولكن الا تظن ان هذا التطرف نتيجة لازمة عن تطرف الفريق الثاني فهم حليم ان يجيبه بانه لا يريد ان يعرف عذراً للسلب والقتل والنهب مهما كان سببه . واذا ارتفع في المدينة صراخ اليأس والاضطراب تمازجها طلقات البارود . فاصفى حليم وسأل ما هذا . ثم علم ان الجنود قد اخذوا كل ما في ثكناتهم من الرصاص وهجموا بقيادة رؤسائهم على جماعات الثائرين يفتكون بهم فتكاً ذريعاً . فدارت بين الفريقين رحى حرب حقيقية سالت بها الدماء وكان لتلك الدماء على اشعة النيران المنقذة حولها بين حشيرة القتلى ولولة النساء وصراخ الرجال منظر مربع

وكان حليم يسرح نظره من بعيد في المشاهد الفظيعة التي كان يراها امامه وهو مشتغل البال بها لا يقدر على رد شيء منها ومضطرب الفكر لما عسى ان يكون قد جرى للفتاة العزيزة التي شاهدها في البستان عند « قرية الدخول » وكان يفكر بها . لكنه بعد برهة سمع هديرًا عظيمًا قريباً فلم انه صوت انهيار القصور المحترقة . ثم سمع اصوات القتل والبنادق اقرب منه مما كانت . فرأى ان يخرج من المدينة فراراً من البلاء ما دام لا يقدر ان يرده . فاخذ رفيقه وخرج معه من المدينة بنفس متأللة اشد الم وقصدا الكمة قريبة مشرفة على المدن الثلاث وكانت مغروسة اشجاراً يتفياها السكان ظلها في حر الهجير . فشاهدها منها مشهداً جميلاً مربعاً . فان السنة النار كانت تندلع في المدن الثلاث فتتير الافاق بنور تحاطه محب من الدخان القائم تحت سماء مستترة بالغيوم السوداء — كأن السماء خجلت من ان تشاهد فظائع البشر في الارض في تلك الساعة . وكانت اصوات القتال ترد من المدن الثلاث في صفاء ذلك الليل فزيد ذلك المنظر رهبة وفضاعة

ولكن يظهر ان السماء كرهت ان تبقى واقفة لدى هذه الفظائع الارضية وقفة المنفرج المشاهد زمناً طويلاً . نعم ان صبرها طويل ولكن لكل شيء حداً . ولذلك تناول جو بيتير اقوى صواعقه وارسلها في الفضاء . فلعل الرعد فوق تلك المدن الثلاث كانذار وتهديد للارض من السماء ان تسكن وتهدهد والا اخربتها . ولكن اهل الارض لم يسمعوا هذا الانذار لان اصوات البارود وصراخ القاتلين والمقتولين كانت تظم اذانهم . فحدث حينئذ ما زاد تلك المناظر رهبة وفضاعة . فان زوبعة هائلة هبت على السهل الذي كانت فيه المدن الثلاث وصارت تكنس كل ما في طريقها . وزارت الريح وفشت الرعود ومدت التناين

خراطيمها من السحاب وهطل المطر كفواه القرب . وكان الأرض خشيت من الساء قبل البشر ولذلك اهتزت تحت المدن الثلاث بزلزلة شديدة . وهكذا تحالف على المدن الثلاث التعيسة النار والقتل والصواعق والزوايع والزلازل . كأن السماء نحات عنهم وقضت عليها قضاء نهائياً

وكان حلیم في ذلك الحين جالساً مع رفيقه تحت شجرة والمطر قد بلل ثيابها . ومع ذلك فقد كانا ينظران باهتمام الى تلك المدن وينتظران طلوع الفجر . فلما طلع الفجر وصار في امكانهما ان يلمحا المدن لم يشاهدا فيها — والسفاه — سوى خرائب واكوام سوداء ينبعث الدخان عنها

فصاح حلیم حينئذ : واحرباء . اهكذا خربت سدوم وعمورة وبابل ونيوى في القرون الماضية ؟

ولما لفظ حلیم هذه العبارة وقع نظره على فرسان قادمين من جهة مدينة المال . فلبث يحدق في جهتهم حتى انكشفوا له وكان الفجر قد زاد اشراقاً . فدبت حينئذ في نفس حلیم شعيرة شديدة . ذلك ان هؤلاء الفرسان كانوا خمس فتيات وهن هن اللواتي شاهدن في البستان قرب قرية الدخول . وكانت حسناؤه صاحبة الحلة البيضاء راكبة في وسطهن كما كانت هناك . فصاح حلیم برفيقه : ماذا نصنع الآن . اتري هؤلاء الفتيات بقية من بقي من سكان المدن الثلاث فجئن يلجأن الى هذه الالكة فراراً من الزلازل والنار . عزيزي صادق ماذا نصنع . الا تظن انهن ييغفلن ويخفن منا اذا شاهدنا هنا

وبعد برهة دنت الفتيات على افراسهن . وكان في يد كل واحدة منهن منديل تمسح به دموعها من حين الى حين وهن بلباس النوم . وكانت وجوههن صفراء كوجوه الموتى . فلما وقع نظر حلیم على هذه الوجوه وتلك الدموع لم يتالك ان بكى ملء عينيه . وقال في نفسه . ان الالباسة والشياطين حين اتيانهم الشر في الارض لا يفكرون ان شرهم لا يقع اشد اذاه الا على اللواتي هن اقل تحملاً له

ولما صعدت الفتيات الى الالكة وشاهدن فيها بشراً اغرقن في البكاء . وصرن لا يرفعن مناديلهن عن عيونهن الا للنظر الى المدن وما صارت اليه . فاين بكاء ارميا على انقاض « ابنة صهيون » من بكاء هؤلاء العذارى على وطنهن المحبوب . لقد فقدن — بفقده — كل شيء . لقد خرجن منه كما يخرج السيف من غمده . فالاهل والمال والمنازل والصدافة ورغد العيش والوطن والعائلة والا مال — كل هذه ذهبت في ليلة واحدة ولم يبق في

مكأنها غير اكوام الفخ والحجارة واشلاء القتلى ورائحة الدماء والدخان . فيا ايها السماء ماذا كنت فاسية الى هذا الحد . يا ايها الخالق الحكيم ليتك كنت اكثر رحمة واشد رافة . لانه اذا استأهل كل اولئك الفتاة القساة عقابك فهو لاء الضعيفات الطاهرات الرقيقات — والوف غيرهن — لا يستأهلنه

وكان حلیم في تلك الاثناء منزوباً مع رفيقه وقابه بتقطع حزناً واسفاً . وبعد برهة تقدم وهو يبكي لبكاء الفتيات التعيسات وقال مخاطباً حسناءه وكان يظهر انها اكبرهن سناً وارشدهن رأياً

— هل تسمح سيدتي في حين كهذا الحين ان اعرض عليها وعلى رفيقاتها خدمتي وكان حلیم قد خاطب حسناءه بقلب خلا في تلك الساعة من الحب لان عاطفة الحب قد غرقت حينئذ في عاطفة الحزن والشفقة والرافة . وهذا شان القلوب الكريمة : ذلك لان عاطفة الحب اكثرها مصوغ من عاطفة محبة الذات واما عاطفة الحزن والشفقة والرافة فاكثرها مصوغ من محبة الغير . والقلب الكريم في ساعة كهذه الساعة يفكر بغيره لا بذاته فاشتد بكاء الفتيات عند سؤال حلیم واجابته فتاته

— عفواً يا سيدي . ماذا نقدر ان تعمل . ان ابانا حاكم المدينة كان اول القتلى ومنزلنا كان اول المنازل المحروقة . ولولا مساعدة الجند الذين كانوا نياماً في دارنا لما نجا منا احد . بل كان حل بنا ما حل بقي السكّان الذين مات نصفهم بالسيف والنار والرصاص ونصفهم بالزوابع والزلازل . فكل ما نطلبه منك هو ان تصلي الى الله معنا ان يرحمنا ويعزينا

ورغبة من حلیم في ان يروح هموم الفتاة قليلاً ويشغل فكرها عنها ولو دقيقة ساءلها — ولكن ما الذي دعا الى هذه الفاجعة الهائلة يا سيدتي بعد ما رايناك من سكينه الاحزاب فاجابت الفتاة والدموع ملء عينيها

— انني انقل لك يا سيدي السبب الذي ذكره لي ابي امس قبل دخولي الى غرفة النوم . فانه اخذ يدي بين يديه وقال لي : تعرفين سبب كل هذه القبائح يا بنية . سببها الشرهة والاشرة والطمع . وئت ابرىء منها حزباً دون حزب . لان التبعة واقعة على الجميع . ولا استغرب ان تخسف بنا الارض او تنقض علينا صواعق السماء ما دنا بعيدين الى هذا الحد عن مبداء الرفق والاخاء .

الخاتمة

ومما لا يحتاج الى بيان ان حليماً استطاع بعد ذلك تعزية فتاته بعض التعزية . وبما انها كانت مع شقيقاتها وارثات المدن الثلاث وما يتبعها من السهول فانها تولت اعادة بناء هذه المدن لتقيم فيها هيئة . بنية على « الرفق والاخاء » تكفيراً عن سيئات المعيشة القديمة . وقد اختارت حليماً زوجاً لها وصادقاً زوجاً لاهدى شقيقاتها ثم زوجت شقيقاتها الثلاث الاخريات ثلاثة شبان من اصدقاء حليم وعاشوا جميعاً في تلك الاماكن مع نسلهم وعملهم ونسل عالمهم معيشة يحسد علىها اهل العصر الذهبي . ولا نعلم هل نتكن يوماً من الايام من وصف هذه المعيشة الفردوسية التي لم نر الارض مثلاً قبلها كما وصفنا معيشة المدن الثلاث القديمة . اما الآن فنكتفي بان نقول بان حبيبة حليم لم تنس ان تقيم ثلاثة آثار في ثلاثة اماكن على سبيل التذكار : المكان الاول البستان الذي شاهدت فيه حليماً اول مرة عند قرية الدسول . والمكان الثاني الاكمة التي وجدته عليها يوم خراب المدن الثلاث . والمكان الثالث الدار التي قتل بها ابوها الشيخ الرئيس

تمت